
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

حكماء أم مفسدون للمتع؟

بقلم برناديت بويچالون وچاكلين ترينكاز*
Bernadette Puijalon
and Jacqueline Trincaz

المسنون فى أفريقيا هم حراس المعرفة والسلطة، وفى الغرب كثيرا ما يعتبرون عبئاً.

إن كبر السن هو تركيب تاريخى وثقافى بقدر ما هو ظاهرة طبيعية. إنه مبنى على عوامل بيولوچية وديمغرافية واقتصادية وسياسية، ولكنه مبنى أيضا على صورة كبر السن ـ وهى فى بعض الحالات إيجابية وفى حالات أخرى أقل إيجابية ـ والتى يشكلها كل مجتمع بالتطابق مع قيمه ومع مفهومه للإنسان المثالى.

وقد أكدت بعض الثقافات الجانب الإيجابى فى كبر السن بالنظر إلى التنمية البشرية باعتبارها عملية تستمر طوال العمر، والتى يُحصّل فيها الفرد المسن صفات جيدة وتجارب. ويمكن أن يوجد مثال لذلك فى المجتمعات الريفية التقليدية فى أفريقيا، حيث يتم التمييز الاجتماعى على أساس السن الذى يؤكد تفوق الجيل الأكبر سنا على الجيل الأصغر. وفى هذه المجتمعات عدد كبار السن قليل ولكنهم يلعبون دورا كبيرا.

فى هذه الأنظمة حيث تسود التقاليد الشفهية ـ تكون

إن أولئك الذين يمتلكون سر الأسطورة المقدسة التى تصف أصل الجماعة يعرفون المعنى العميق للأشياء وقانون الأجداد

المعرفة ملكا للكبار جدا فى السن ـ وهى ليست المعرفة الفنية التى يستطيع أى فرد أن يستوعبها بسرعة ولكنها «المعرفة بالأساطير» التى لا يستطيع أى شاب أن ينزعها منهم. إن أولئك الذين يمتلكون سر الأسطورة المقدسة التى تصف أصل الجماعة يعرفون المعنى العميق للأشياء وقانون الأجداد، وبعبارة أخرى المبدأ الذى يحكم وينظم النظام الاجتماعى. والأسطورة تولد الطقوس، أى تكرار الحركة الأصلية، مما يجعل كبار السن هم الكهنة القائمون على العبادة المحلية، القادرون على النطق بالكلمات المقدسة، التى تطلق القوى الطيبة أو القوى الشريرة، وتصدر البركات واللعنات.



احتفال بالدخول فى مجتمع البالغين (كينيا).

والكبار عليهم دور تعليمى ذو أهمية حيوية لأنهم متمكنون من المعرفة. وإلى جانب إبلاغ الأجيال الشابة بالأسطورة فإنهم يجب أن ينقلوا لهم تاريخ الجماعة وأحكامها الاجتماعية التى يقومون على حراستها. وهذا النقل يحدث على مراحل، خاصة أثناء احتفالات الدخول فى عالم الكبار، والتى تعتبر معلما مهما فى عملية التعليم، والتى تمكن الكبار من الاحتفاظ بجزء من السر أطول مدة ممكنة، وتضمن لهم سيطرتهم الثقافية والدينية والسياسية. إن قوة حكم الشيوخ موجودة في جذور هذا النظام. يقول عالم أصل الإنسان الفرنسى لويس ڤنسنت توماس «إن العملية سهلة». وهى تتكون من مصادرة المعرفة الأساسية، ثم تقديمها للمجموعات العمرية الناشئة فى جرعات مقاسة بدقة وعلى فترات محسوبة جيدا من خلال لغة غنية بالرموز ذات صدى عاطفى كبير».

هبات من وراء القبور

وهكذا فإن كبر السن هو عملية اكتساب، وصورة كبار السن إيجابية جدا. الرجل المسن رجل حكيم. وهو يقدم القدوة، وقد خدع الموت باستلهام الوحى من قيم المجموعة. إنه لا يخشى الموت الذى سيجمعه مع أجداده، ويمكنه من أن يستمر فى أن يكون مفيدا للمجتمع بأن يقدم هبات للأبد لذريته. إن النظر إلى الحياة باعتبارها سلسلة من الأحداث المتوالية التى تستمر بعد الموت تؤدى إلى مفهوم لكبر السن باعتباره المرحلة الأخيرة للصعود نحو اكتمال المعرفة والسلطة.

وما تسميه المجتمعات الغربية فقدان للقدرات، وعجز جسدى وانحلال، ما هى إلا أعراض لعملية التحول نحو

* علماء فى علم أصل الإنسان، جامعة باريس ٧.

مرحلة أعلى. إذا كان أحد كبار السن لا يستطيع أن يلتزم بموضوع الحديث فمن الجائز أنه يتكلم مع أجداده. وإذا كان أعمى أو أصم فهو يرى ويسمع الأرواح. وإذا ما ضعف وأصبح غير قادر على الحركة فإنه قد أصبح روحا. وبعد أن حقق ذلك وأصبح قريبا من الله ومن أجداده فهو يعيش كواحد من المختارين. فى مثل هذا المجتمع يتمتع الناس بكبر السن بالقول بأنهم كبار فى السن، بل وحتى كبار جدا جدا. إن الاصطلاح له تداعيات إيجابية كثيرة، وإضافة وصف «حكيم» يعطى فضلا وزيادة عن الحاجة.

البحث عن الشباب الدائم

المجتمعات الغربية، من الناحية الأخرى، تقسم مدة حياة الإنسان إلى فترات متتابعة، تمر بمراحل النمو ثم النضوج ثم الذروة، ويتبعها التراجع والسقوط الذى يؤدى للنهاية الحتمية التى لا رجعة فيها.

وفى مواجهة الزيادة التى لم يسبق لها مثيل فى متوسط العمر المتوقع والعدد المتزايد دائما من كبار السن، ليس لدى هذه المجتمعات سوى كلمتى للسر: المقاومة الفردية لكبر السن وتضامن الجميع من كبار السن الأكثر فقرا.

ونظرا لأن كبر السن ليس مرغوبا فيه ولا يُحسد عليه، فإن الناس يجب أن يحاولوا تأخير هجومه بقدر الإمكان. وليس لهم الحق فى تبديد رأسمالهم من الشباب، إنهم يجب أن يقاوموا آثار الزمن المدمرة، وأن يعيشوا حياة صحية، وأن يستفيدوا من كل وسائل العلاج التى يستطيع أن يقدمها العلم، سواء كانت حبوبا أو كريمات للصحة أو جراحة. والغرض من الأعمال الوقائية ضد كبر السن ليست تنمية قدرات الشخص على العيش، ولكن رفض هذه المرحلة من العمر لأنها تعتبر مهينة.

وبالنسبة للمجتمعات الغربية، هذه الفترة من الحياة تسودها الصور السلبية

وهذا الصراع هو مسألة مسئولية فردية و«الخاسرون» أولئك الذين لا ينجحون فى البقاء شبابا فى العقل والجسم عندما يمرضون، أو يعانون من فقدان أحد أقاربهم، أو تحدث لهم حادثة - يشعرون بالذنب. بالنسبة لهم، لقد انحرفت الحياة بشكل فجائى وعنيف عن مسارها الطبيعى.

لقد دخلوا فى كبر السن، سن الاعتماد على الغير. والمعيار الذى يبنى عليه هذا التحول ليس اجتماعيا أو ثقافيا، بل بيولوجيا. إنه يتوقف على القدرات الجسمانية للفرد وليس على عمره الزمنى. وبالنسبة للمجتمعات الغربية، هذه الفترة من الحياة تسودها الصور السلبية - الوحدة والعجز وعدم إفادة المجتمع.

والاهتمام هو كلمة السر. عندما يكون كبر السن مرادفا لعدم الكفاية والتدهور، هناك بعض الأشياء التى يجب عملها. فالأخصائيون الاجتماعيون المتخصصون فى العناية بالكبار يستخدمون أساليب خاصة للتقييم لتحديد نوع المساعدة التى يجب تقديمها لهم، وأى الموارد يجب استخدامها، من أدوية الشيخوخة إلى تسهيلات الرعاية الطويلة الأجل. وهذه العملية لها منطقها الخاص، وهى تثير سؤالا خاصا بتكلفة هذا الاعتماد، مما يقوى الصورة المخيفة لكبار السن باعتبارهم عبئا اقتصاديا. من الجائز أنه لم يحدث من قبل أن قدم مجتمع ما كل هذه الرعاية لأعضائه من كبار السن.

إنهم يستفيدون من الحماية الاقتصادية والاجتماعية، ولكن الصورة التى لدى المجتمع عنهم سلبية بشدة.

الانفصال بين المجموعات العمرية

بين المؤرخون أن صورة المجتمع عن الأفراد فى مرحلة معينة من حياتهم لها تأثير كبير على الطريقة التى يعاملون بها. ومن المفارقات أن المجتمعات الغربية - حيث تزداد أعداد كبار السن باستمرار - تنظم شكلا من الفصل بين المجموعات العمرية لم يسبق له مثيل. إن الشباب والعجزة يمارسون أنشطة مختلفة فى أماكن مختلفة وفى أوقات مختلفة. إن الاختلاط المنسجم بين الأعمار فى مكان مشترك أصبح غير موجود الآن.

وفى أفريقيا، يؤدى التغيير فى السياق التقليدى بواسطة عمليات مثل الحضرنة والتعليم، وتكوين ثقافة مبنية على الكلمة المكتوبة، واختلاط السكان من بلدان مختلفة، وانتشار الأديان الجديدة، ووصول قيم جديدة أكثر فردية، إلى إذابة إن لم يكن تدمير نظام المجتمع وسيطرة الشيوخ عليه.

إن المعرفة والسلطة قد انتقلت لآخرين. إن هذه المجتمعات قد تكون فى عصر «غروب الكبار». إلا أن المجتمعات لا تظل متجمدة. وحتى لو انقلب هرم السن رأسا على عقب - عندما يبدأ الناس فى الظهور فى القمة أكثر منهم فى القاع، كما فى الغرب أو فى بعض البلدان الآسيوية التى نفذت سياسات فعالة للحد من المواليد - فإن التضامن قد يكون مازال له دور - ولكن فقط إذا ما عادت عملية الأخذ والعطاء بين الأجيال فى العلاقات الإنسانية. ■

- « إن أسوأ شىء فيما يتعلق بكبر السن هو أنك تظل شابا ».
جان كوكتو (١٨٨٩ - ١٩٦٣)، فرنسا

مسنون وشباب فى السوق المركزى فى موسكو.

